www.assafir.com جريدة السفير ©2012

ثقافة
تاريخ العدد 24/11/2012 **العدد** 12341

فاصلة

وجه اللا أحد

عباس بيضون

كان بيكون يمزج عدّة بورتريهات ليخرج من المزيج وجه يحمل في طيّاته عدّة وجوه. ماذا فعلت شذا شرف الدين بوجهها، هو الذي يبقى وجهها رغم ما يُلقى عليه من تحويرات وانحرافات وتشويهات؟ لا تريد شذا شرف الدين أن تخلق وجهاً عامّاً لا ينتمي إلى أحد. لا تريد فوراً وجه اللا أحد. تريد وجهها وهي كفيلة بأن تجعله يكشف ببطء عن تاريخه، كفيلة بأن تجعله يتفتّح عن وجوه عدّة كامنة فيه، كفيلة بأن تحوّل وجهها الشخصيّ إلى لعبتها الخاصّة، بأن تحوّل بورتريهها إلى وجه اللا أحد. لكنّ اللا أحد ثمرة مخاض طويل وعمليّة موصولة يتخلّص فيها الوجه من أيّة سمة خاصّة ويتحوّل أخيراً إلى داخل مرعوب خائف، أي أنّ ما يطفو على الوجه وما يلويه ويطعجه ويحفر فيه هو، بالضبط، تاريخه: تاريخه الذي لا يتوقّف عند سمت أو صورة، بل يقلّب الصور والسمات ويعجنها في بعضها البعض ويستخرج من كلّ ذلك هذا الوجه العائم، الذي هو في النهاية اللا أحد الذي يبرز بعد كلّ محاولة للتعمّق في الشخص، بعد كلّ تحطيم لطبقات وعيه، بعد كلّ إيغال في بواطنه، وكلّ تفتّح لمكنونه. إذ أنّ النفس هي التي تطفو على الوجه وتحضر فيه وتلتهمه، النفس التي هي، في أعماقها، غير موصوفة وغير مسمّاة، النفس التي هي صهير والتواءات ولا تشكّل ولا شكل. فما يظهر أخيراً على الوجه من حفر وتحوير ليس كلّ شيء، إنّما عمليّة مثابرة مستمرّة ينقلب فيها الانسانيّ إلى مُستلَب باستمرار، إلى عمليّة تحوّل وصهر وعجن مثابرة.

الوجه هو تلك الذاكرة الديناميكيّة التي لا تتوقّف عن التقلّب، إنّه يتابع من حيث انتهى النموذج البيكونيّ، يتابع تغيّره وتحوّلاته من لحظة للحظة. فما هو نحت ليس للعين سوى لحظة، وإذا نظرتَ ستجد شيئاً آخر، فلا حدود لآخريّة هذا الوجه. الوجه الشخصيّ الذي في تحوّله يغدو آخر نفسه، قبل أن يصير، في آخر مراحله، اللا أحد، هو ما يصل في ذروة تشكّله إلى كمال التشوّه. لا يكون الوجه الذي نشأ من صورة شخصيّة سوى الآخر المتحوّل في جريانه باستمرار، سوى الشيء والأداة والنفاية والتحوّل (ميتامورفوز). هكذا تغدو الأنا وقد تآكلت وتطعّجت، آخرَ مطروداً أو آخرين متّصلين يلوح منهم كلّ لحظة، وباستمرار، اللا أحد.

يمكننا أن نقول بدون حرج أن شذى شرف الدين في معرضها هذا تجترح، أن تحول وجهها، جسمها إلى موضوع لفنها، أن تطابقه على وجوه بيكون التي هي وجوه معجونة في بعضها، ان تخرج بوجهها، جسمها، وقد صار مصداقا للوحة أخرى. أن يقلّد الواقع الفن، أن يعيد الجسم اللوحة. نحن امام لحظة خاصة في تاريخ فنوننا، أم تظاهرة حقيقية وطليعية وخصبة، شذى هكذا بدون أي مساومة على حساب الفن تزيل الفارق بين الجسد والخارج، بين الواقع والفن، بين الأنا والآخر.